

الفصل الثاني

يعقوب صروف في عصره

١ - حياته

(١٨٥٢ - ١٩٢٧)

الدكتور يعقوب صروف ، علم من أعلام العلم والأدب والفلسفة والرياضيات كما سئرى ، جابت شهرته العالمين القديم والحديث ، ولد في الحدث على مقربة من مدينة بيروت لبنان السنة ال ١٨٥٢ ، وتعلم ككل لبناني في مدرسة القرية ثم انتقل إلى مدرسة عبيه الأمريكية ، ولما أسست الكلية الإنجليزية السورية السنة ال ١٨٦٤ م وحى اليوم « الجامعة الأمريكية » انتظم في سلك تلامذتها فكان من أفراد الرعيل الأول الذى تخرج منها يحمل درجة بكالوريوس علوم السنة ال ١٨٧٠ (١) .

ولا ريب أن فى الحياة موجهاً يوجه الإنسان إلى العمل الذى يجب أن يملأه ، فكان واحداً من أولئك الذين أعدوا لأن يكون معلماً فى مطلع شبابه ، فعلم فى مدارس صيدا وطرابلس لبنان وصافيتا مدة ثلاث سنوات ، وفى بدء السنة الدراسية ال ١٨٧٣ - ١٨٧٤ دعت « الكلية » ليعلم فيها العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية وعلم الفيزياء . فانصرف إلى « الدرس والتدريس وقرن العلم بالعمل وجعل تلامذته يطبقون علم الهندسة وحساب المثلثات على مساحة الأراضى ويصنعون الآلات الطبيعية كلفائف الحدود والأجراس الكهربائية ، وكان ذلك دأبه وهو تلميذ ، فإنه صنع آلة تدور بالماء على مبدأ مطحنة " باركر " وهو يدرس

(١) راجع محاضرات الدكتور فوزى صروف فى كتابه يعقوب صروف العالم والإنسان - نشر دار العلم للملايين ص ١٢ ومقال جبر خرومط : المقتطف مجلد ٧٢ ص ٢٨٧ .

علم السائلات ، فأخذها رئيس المدرسة وحفظها بين أجهزة الفلسفة الطبيعية ، وهي التي ذكرته به حينما كانت المدرسة تبحث عن أستاذ لتدريس علم الطبيعيات^(١) . كما أنه درس فيها اللغة والبيان فاستقامت لغته وعرف من أسرار اللغة ، حقيقتها ومجازها ما جعله حجة يؤخذ برأيه كما سنعرض إلى ذلك في حينه .

أما تحقيقه العلمي فقد كان مطبوعاً منذ صغره على حب البحث والتحقيق شأن العلماء الحقيقيين ، وربما قضى أياماً وأسابيع وشهوراً في سبيل درس مسألة علمية أو نظرية فلسفية أو معاداة كيمائية ، ليصل إلى الحقيقة المتوخاة . وكان في كل أبحاثه يرد المسببات إلى أسبابها نابذاً القشور بثاقب فكره غير حافل إلا بالباب^(٢) .

وإن نحن نظرنا إلى باب الأسئلة والأجوبة في مجلدات المقتطف وما فيه من أجوبة سديدة في مختلف العلوم والفنون والحوادث والحالات ندهش مما وعى صدره من الحقائق والمعلومات وما كان عليه ذهنه من المضاء ، ونظره من صدق الحكم والاستنتاج ، وكان من أشد الناس كرهاً للخصام والشقاق وأقربهم إلى الصفاء والوفاء . ومع غزارة علمه وسعة اطلاعه لم يكن يعرف لفظ العداوة معنى ، ولا يدرك لكلمة الحقد مغزى ، وهذا ما يدلنا على سمو أخلاقه وجليل صفاته ، وكان يرى أن المرء ملتزم بأن يسدى المعروف والجميل ويبسط يد المعونة والإسعاف غير منتظر شكراً لأنه واجب إنساني .

٢ - آثاره

عرب :

- كتاب سرّ النجاح لصموئيل جيميلز الإنجليزي ، ففي تعريبه وتسميته وإضافة أشياء مهمة عن مشاهير العرب إليه ، يراهن على ولعه بالتاريخ واحتفاله بتراجم المشاهير مما يدعونا إلى الاعتراف بأنه مؤرخ ومؤرخ صادق .

(١) تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فليب طرازي ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤١٧ ، ٤٢٠ .

— سير الأبطال القدماء والعظماء : عربيّ مع زميله ورفيقه الدكتور فارس نمر ، وفي الكتاب تتجلى روحانية المترجمين وتمسكهما بالبرّ والفضيلة .

وضع :

— رواية فتاة مصر : وصف فيها تاريخ المجتمع المصريّ في مطلع القرن العشرين بعاداته وأزيائه وأحواله الاجتماعيّة والأدبيّة والماليّة . طبعت ثلاث مرات .

— رواية أمير لبنان : فيها وصف للبنان في العقد السادس من القرن الماضي ، استرسل فيها إلى ذكر ثورة سنة الستين الأهلية ومطامع الدول السياسيّة فيه .

— رواية فتاة الفيوم : رواية عصريّة تصف حالة مصر الاجتماعيّة والاقتصاديّة ومنزلتها التاريخيّة وآثارها النفسيّة .

— رجال المال والأعمال : وفيه الموضوعات الاقتصاديّة وترجمة الرجال العاملين العصاميين ، وصدق آرائه الصائبة في هذا الفنّ الحيويّ .

— الرواد : ترجم لمشاهير المستكشفين في القطبين الشماليّ والجنوبيّ وفي صحراء أفريقيا وما قاسوه من أتعاب في سبيل العلم والمعرفة .

— بسائط علم الفلك وصور السماء : وفيه أبحاث ضافية عن هذا العلم ونظرات صائبة مبرهنة بمعادلات رياضيّة .

— العلم والعمران : وفيه أحدث الآراء التي قالها العلماء في مجمع تتمدّم العلوم البريطانيّ .

— فصول في التاريخ الطبيعيّ من مملكتيّ النبات والحيوان : وفيه وصف النبات على أنواعه ووصف الحيوان ، وتنازع البقاء بين المماكتين : النبات مع نوعه ، والحيوان مع نوعه .

— أعلام المتتطف : وفيه تاريخ رجال العلم والفلاسفة من سقراط إلى الأستاذ جاك لوب المتوفى سنة ١٩٢٤ . ولا نكران على أن أبحاثه التي يخلد فيها

نجادها في مجلدات المختطف التي تعهدنا بقلمه وفكره وعددها سبعون مجلداً صرف في تدبيجها والإشراف عليها مدة اثنتين وخمسين سنة، وهي حافلة بالأبحاث العلمية والأدبية والفلسفية والتاريخية والاقتصادية والزراعية، عدا ما في باب المسائل من فوائد قيمة، وكل ما له علاقة بالعمران؛ على أنني لم أقع على بحث واحد لا من قريب أو بعيد على بحث ديني مما أثبت لي أنه كان يتحاشى الخوض في الأبحاث اللاهوتية أو ما يمس المعتمدات الدينية، بالرغم من أنه كان رجلاً مؤمناً بالله وبدينه المسيحي، يحترم العتائد ويرى أنها كلها طريق إلى الله تعالى.

٣ - أخلاقه (١)

من ذكريات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ما يصور لنا أخلاق الدكتور صروف وما كان عليه من التواضع ولين الجانب مع ما كان عليه من سعة العلم وأصالة المعرفة والفكر الصائب قال: «وهو لا يرى نفسه شيئاً وكأما ازداد علماً ازداد تواضعاً، وكلما عجب الناس من سعة علمه عجب هو من كونه يرويه عالماً» (٢) فقد كان رحمه الله على جانب من التواضع والاطف وإنكار الذات يتحلى بسجية العلماء الحقيقيين من الوداعة والتخرج عن البت في الأمور والجزم الذي يجزمه بعضهم كأن الحقيقة أصبحت في جيبه، وكأنه لو ارتفع الغطاء لم يزدد يقيناً. كلا. لم يكن من هذا النمط بل كان مشربه أنه مهما كانت القاعدة العلمية نازلة منزلة الحقائق لا يتلقاها الإنسان إلا مع شيء من التحفظ يبق مع الباب مفتوحاً لنظريات جديدة. وكان كثير التأني والتروي قليل التسرع وأبعد الناس عن التهور (٣) وكان متأنقاً في مأكله وملبسه فما كان يمسك القلم ولا يدنو

(١) ملخص عما قاله فيه العلماء والأدباء في الكتاب الذهبي.

(٢) المختطف ج ١ من المجلد ٧٣ ص ٨. (٣) المصدر نفسه ص ١٣٧.

من المنضلة حتى يتزين بثيابه^(١) ، وما كان يأكل إلا ما يسد الحاجة ، وفيه فائدة للجسم بدون شراهة ؛ وهو على الحملة كان عالماً وإنساناً وإليك ما قال عنه الأستاذ حنا خباز^(٢) « - الدكتور صروف - هو في الشرق ، إحدى تلك الغوالى . فقد تثبت بالحقيقة إلى غاية ما يمكن لا تشبه عنها أومة لأنهم ، فلم يغش محب الحقيقة مصانعة . والنفس لا تحب الحقيقة إلى هذه الدرجة ما لم يكن رسم الحقيقة مطبوعاً على صفحاتها . ورسم الحقيقة على صفحات النفس هو الجمال الحقيقى الذى تهواه النفوس ، ولا نفس تهوى الحقيقة ما لم يكن لها فى ذاتها حقيقة . وشغف النفس بالحقيقة هو ظاهرة التفاهم بين النفس وبين الحقيقة » .

ومن مجمل ما قرأت وسمعت ؛ فالدكتور صروف كان مثال الخلق الرضى ، أديب لوذعى ، فذ نزيه ، لين العريكة ، رصين ، غير مماذق ولا غماز لماز ، وكفى أن نقول : إنه أول من قال : « مناظر ك نظيرك » وأثبتها فى مقتطفه شعاراً ، علم وعمل بها ، يقر بالخطأ ويتمسك بالصواب غير هيب أو وجل ، وأما صفاته فتنبى عنه أخلاقه^(٣) .

فشهادة رجال العلم والأدب « يعقوب صروف » وسام صاغته الأيام ورصمه العلم الصحيح ، والأدب الرفيع ، وعلقه على صدره الخلق الرضى . والفكر النير ، والمحبة الشاهلة ، والكلمة الصريحة التى لا تعرف للدوابة معنى ولا للمصانعة مبنى ، فقد عرف الحق الصراح ، والحق حرره من كل عصبية . ورفع إلى مستوى الرجال العاملين ، فى خدمة الفكر وتحرير العقول .

(١) رواية عيسى إسكندر المملوف ، مجلة أنكوتر ٢٨ حزيران سنة ١٩١١ ص ٣١٨ .

(٢) المقتطف ج ١ من المجلد الثالث والسبعين ص ٤٣٧ .

(٣) المقتطف مذكرات الدكتور شخاشيرى المجلد ٧٢ من ج ١ ص ٢ - ١٢ .

